أسرارُ الإعجازِ لمُصطفى صادِق الرافعِي
-جمعٌ ودراسةٌ وتحقيقٌ لكتابٍ ضائعٍ-
Mustafa Sadiq Al-Rafei's Secrets of Miracle
-Collection, Study and Investigation of a lost book-

سمير بعزيز*
جامعة العربي بن مهيدي –أم البواقي- (الجزائر)
Samir.baaziz@univ-oeb.dz

تاريخ الارسال: 2024-02-03	تاريخ التقييم:2024-06-09	تاريخ القبول:2024-07-06

الملخص:

تدور قضايا هذا البحث حول محور الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم, هذا المجال الواسع الذي عُنِيَ بكتابات العلماء فيه منذ بداية التأليف في العصور الإسلامية المتقدمة, انطلاقا من الجاحظ, ومرورا بالباقلاني والجرجاني, وانتهاء بالسيوطي, وغيرهم, إلى أن استقر الأمر في يد علماء العصر الحديث, حيث انبرى لهذا الميدان أديب العربية ـ مصطفى صادق الرافعي ـ فدون كتاب (تاريخ آداب العرب) في ثلاثة أجزاء, وأفرد الجزء الثاني منه للإعجاز القرآني والبلاغة النبوية, فكان هذا الكتاب سبقا تاريخيا إبان تلك الحقبة الزمنية, لا يعرف لمعاصريه مشاركته في موضوعه, وكان الكتاب بالنسبة له حافزا قويا دفعه ليخوض غمار البحث في استخراج أسرار الإعجاز في القرآن الكريم.

جمع الرافعي ـ قبل أن توافيه المنية ـ من النصوص القرآنية في دراسته قرابة الثمانين آية, ومع قلة عددها إلاّ أنّ معاصريه بهرتهم طريقة تعامله مع تلك النصوص, وأسلوبه في استخراج أسرارها, فشهدوا له بالتفرد في هذا الميدان, وانتظر الجميع إكمال المشروع وإخراجه للناس, ولكن سبقه الموت إلى ذلك, وبقي الكتاب أوراقا مبعثرة على مكتبه, ينتظر من يخرجه إلى نور المطابع.

وهذا البحث بصيص من نور, يحاول أن يدل على أثر ذاك السفر الجليل, ولو من بعيد, بالشيء القليل, لعله يكون بادرة أمل في إخراج بعض ما يمكن الحصول منه.

كلمات مفتاحية: إعجاز القرآن؛ البلاغة العربية؛ مصطفى صادق الرافعي؛ النصوص القرآنية.

Abstract : This present research addresses the scientific miracles, both linguistic and rhetorical, in Quranic discourse. This broad field focused mainly on scholars' writings and publications in the earliest phase of Islamic era, such as El Djahidh, El Baqillani, El Djodjani and Soyouti as well as scholars in the modern era. In this latter era, it should be noted, the well-known Arabic writer Mustafa Sadiq Rafiai wrote his book, entitled "Tarikh Adab El Arab", in three parts, and devoted the second part to the scientific Miracles of Quran and prophetic rhetoric. Sadiq's book became an agenda setting publication in the modern era as it paved the way for his other writers, who were keen to probe down the mysteries of scientific miracles of quranic discourse.

El Rafiai compiled and analyzed roughly eighty Quran verses before his death. Despite the short number of the Quranic texts, many of his contemporaries had been bewitched by his analyses of Quranic discourse. Scholars considered him as a pioneering figure in the field and many of them had been waiting for his work to be published. However, El Rafiai died before he can finish writing his book and many of his papers and documents remained scattered in different corners of his office.

This present research attempts to shed light over this legacy and seeks to probe down into the mysteries of their writings and publications.

Keywords : Scientific miracles of Quran, Arabic Rhetoric, Mustafa Sadiq El Rafiai, Quranic Texts.

المؤلف المراسل:

مقدمة:

يعتبر موضوع هذا البحث بوابة للدخول إلى عالم أسرار الإعجاز القرآني, من خلال ما كتبه أحد نوابغ الأدب في العصر الحديث, لقد خط الرافعي أسطر كتابه في إعجاز القرآن, فنال بذلك منزلة رفيعة بين علماء عصره, وحصل درجة رفيعة بين علماء الأمة قديما وحديثا, فنظَّر في باب الإعجاز, وقعَّد له القواعد في ميدان البلاغة العربية, وكان ذلك تمهيدا لمشروع ضخم أراد ولوجه والتفرغ للكتابة فيه, لكن يد القدر قد سبقته قبل إتمامه, فكتب في أسرار الإعجاز القرآني, وغاص في أعماق النصوص القرآنية, واستخرج روائع البيان منها, ولكنه لم يكمل ما كان يرجو إخراجه للأمة, ومع ذلك ترك بعضا وثمانين آية, استخرج أسرارها, وبين وجوه الإعجاز فيها, فكانت بحق كنزا ثمينا لأهل القرآن والبلاغة العربية, لكن مقربيه يتحسرون على عدم تمكنهم من هذا الموروث.

وفي هذا الموضوع تتبعنا كل أثر يدل على الكتاب الذي حكم عليه بالضياع, فاستقرأنا كل ما كتب عنه, وما قيل فيه, فحصلنا على ما يدل عليه, فقدمناه للقارئ بطريقة مبسطة, عرضنا فيها: المحاور الآتية: عن إعجاز القرآن, ثم: عن كتاب (أسرار الإعجاز), ثم عن القيمة العلمية للكتاب, ثم عن تاريخ كتابته, ثم عن مادة الكتاب, وأهم موضوعاته.

وقد اعتمدت في جمع هذه المادة العلمية على ما كتبه الرافعي بيده, سواء ما جاء منشورا في كتبه, أو ما راسل به تلاميذه وأصدقائه.

فأرجو أن أكون بهذا البحث قد فتحت بابا كان موصدا, وقدمت للقراء عامة, ولمحبي الرافعي على وجه الخصوص بعض الأثر الذي يدل على المجهود الجبار الذي قدمه صاحبه في كتابة أسرار الإعجاز القرآني.

1- إعجاز القرآن[1]:

يعتبر الجاحظ عند كثير من العلماء أول من تكلم عن إعجاز القرآن الكريم، واعتبر النقاد كتابه (نظم القرآن) أول مؤلف تكلم عن هذه القضايا المعجزة في بلاغة القرآن، في حين يجعلون كتاب أبي عبد الله محمد بن زيد الواسطي (إعجاز القرآن) أول كتاب وضع لشرح

الإعجاز وبسط القول فيه, وفي الفترة نفسها كتب الرماني, والخطابي,كتابيهما في نفس الموضوع.

وجاء بعدهما الباقلاني فوضع كتابه المشهور (إعجاز القرآن), الذي أجمع المتأخرون ومن جاء بعده على أنه باب في الإعجاز على حدة, ثم جاء بعدهم الجرجاني فشرح كتاب (الإعجاز) للواسطي شرحين مفصلين, أحدهما شرح كبير, سماه (المعتضد), والآخر صغير, سماه (المقتصد)، وقد بنى عبد القاهر كتابه (دلائل الإعجاز) على كتاب الواسطي هذا.

وممن ألّفوا في نفس الباب على اختلاف بينهم في طريقة معالجة هذه الظاهرة ووجوهها اللغوية والبلاغية: فخر الدين الرازي، والأديب ابن أبي الأصبع, والزملكاني، وكانت كتبهم بعضها من بعض[2].

وفي القرن العاشر برز جلال الدين السيوطي بكتابيه: (الإتقان في علوم القرآن), و(معترك الأقران في إعجاز القرآن)، وقد جعل بعض الدارسين المعاصرين كتاب الرافعي (إعجاز القرآن) أول كتاب مستقل درس ظاهرة الإعجاز في العصر الحديث, وجعل رتبته تلي رتبة كتب السيوطي, في ما كتبه عن القرآن وعلومه، وقد وجد هذا المؤلف مكانته بين رفوف مكتبة علوم القرآن عموما, وبين كتب الإعجاز القرآني على وجه الخصوص، فأصبح يقرن في الذكر بكتب الرماني والباقلاني والجرجاني وغيرهم[3].

ألف الرافعي هذا الكتاب وبين غايته بقوله: "سنقول في القرآن الكريم مما يتعلق ويتصل ببلاغته, ويكشف عن أوجه الإعجاز في ذلك، لا ننفذ في غير سبب لما نحن بسبيله، ولا نذهب في الكلام عن نتيجة من نتائجه"[4].

يصدر الرافعي كتابه بمقدمة مطولة, تعتبر فصلا تمهيديا للكتاب، تكلم فيها عن تاريخ القرآن وجمعه وتدوينه وقراءاته، وكان يقصد من وراء ذلك الدفاع عن لغة القرآن وبلاغته، ثم بعد ذلك عرج على الحديث حول الإعجاز اللغوي ووجوهه، والبلاغي وفروعه.

يمكن تقسيم دراسته عن القرآن الكريم إلى قسمين: بدايات ومقاصد، ويعني بالبدايات: ما اشتمل عليه الكتاب من الحديث عن جمع القرآن, وتدوينه, وقراءاته, ولغته,

وآدابه، وأثره في العلوم المختلفة، وهذا ما صدر به الرافعي كتابه, وتكلم عنه في مقدمته، وأما المقاصد فيعني بها: "حديثه عن الإعجاز, وما يتعلق به"[5].

أراد الرافعي أن يبرز وجوه الارتباط الوثيق بين الكتاب المعجز ـ القرآن الكريم ـ وما حواه من مجالات الإعجاز التي لا تنحصر في جهة ولا عصر، وبين اللغة المنزل بها, وما أدته هذه اللغة من دور محوري في إبراز تلك الوجوه المتعددة من الإعجاز، وأن القرآن مع ما فيه من الإعجاز جاء ليخلد هذه اللغة التي نزل بها، لأنها في ذاتها معجزة العرب الخالدة التي لم تنلها الإبادة بحظ كباقي اللغات.

اشتهر الكتاب الأول (إعجاز القرآن) شهرة واسعة بلغت الآفاق في وقته, وتداولته أيدي الباحثين ـ على قلتهم ـ بالدرس والتعليق، ولكن الكتاب الثاني (أسرار الإعجاز), رمته يد الأقدار في غيابات المجهول، وضربت عنه يد الزمان صفحا, فكان شيئا من النسيان، فما وصلنا منه إلاّ شتات كأنه بعض أشلاء مزقتها أنياب صروف الدهر الذي يرمي بأصحابه في سجون التاريخ العتيق.

وقد رحت أتتبع أثر ذاك العمل قصد جمعه, محاولا لمَّ شتاته المتناثر بين دفات أعمال الرافعي المتعددة, وجمع ما تفرق منه, ونفض الغبار عنه, علّه يحيا من جديد، وتدب فيه الحياة التي سكنت فيه منذ أن مات صاحبه، مستعينا في ذلك بما قدمه مؤلفه من خطوط عريضة، وأضواء نيرة، يمكن أن تعيننا وتدلنا على شيء ذي بال في هذه الدراسة.

وقد جعلت نبراسي في ذلك أقواله التي كانت ترشدني إلى ما أردت, وتدلني إلى ما قصدت، فوجدت الروابط جلية, والعلائق والأواصر قوية بين الكتابين، فاعتقدت ـ وكان ذلك كذلك ـ أن الكتاب الأول تنظيري في أصل وضعه، والكتاب الثاني مجال واسع من تطبيقات عملية تقوم على ما نظَّر له سابقا، وما الثاني إلا تكملة وإتمام للأول، يقول صاحبه وهو يتكلم عن الإعجاز: "نسأل الله تعالى أن يوفقنا لوضع الكتاب الذي نكمل به كتابنا هذا, فنبسط فيه من أسرار الآي وإعجازها ما تطلع به الشمس لمن أبصر فيراها، ولمن عمي فيحسها "[6]، ويقول

أيضا: "ولا يبرح الفكر يتمثل تكملة (إعجاز القرآن) بـ(أسرار القرآن)، ونحسب أن عون الله قريب"[7].

انتهى الكاتب في تحديد وجوه الإعجاز بعد التقصي الشديد, والاستقراء الواسع, والجهد الجبار، مع سعة اطلاع, وإمعان النظر, وتقليب الرأي، وإحاطة بوجوه البلاغة على اختلاف مشاربها. يقول مبينا عن ذلك من نفسه: " أما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن، وما حققناه بعد البحث، وانتهينا إليه بالتأمل, وتصفح الآراء, وإطالة الفكر, واتضاح الروية، وما استخرجناه من القرآن نفسه في نظمه, ووجه تركيبه, واطراد أسلوبه، ثم ما تعاطيناه لذلك من التنظير والمقابلة, واكتناه الروح التاريخية في أوضاع الإنسان وآثاره, وما نتج لنا من تتبع كلام البلغاء في الأغراض التي يقصد إليها, والجهات التي يعمل عليها، وفي رد وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللغوي التي مرجعها إلى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حي من الألفاظ, يطابق سنن الحياة في دقة التأليف, وإحكام الوضع, وجمال التصوير, وشدة الملاءمة, حتى يكون أصغر شيء فيه كأكبر شيء فيه"[8].

ينتقل الرافعي إلى الكلام عن الأسلوب القرآني، انطلاقا من الحديث عن المستوى البياني المذهل الذي وصل إليه العرب قبل نزول القرآن، وقصد إلى هذا التمهيد لكي يثبت أن القرآن منزل لإعجاز من بلغت القدرة بهم على قول ما لم يستطع أحد قوله مثلهم، فكانت أقوالهم بعدما أنزل القرآن هي المعاجم التي يستعان بها على ما أشكل من ألفاظ, وما استغلق من معاني في فهم القرآن الكريم [9].

1-1- كتاب أسرار الإعجاز:

(أسرار الإعجاز): هو الوجه التطبيقي لما نظر له الرافعي في كتاب (إعجاز القرآن)، طالما حلم الرافعي بإخراجه، ولقد خلصت له كثير من مادته التي قد تصل إلى نيف وثمانين آية, كشف أسرارها, واستخرج دررها, وأهدى للناس جواهرها. ووعد قراءه عامة وأصدقاءه وأصفياءه خاصة بإخراجه على وجه يحدث انقلابا فكريا إنسانيا لدى المثقفين في ذاك الوقت.

لكن حالت المنية دون الأمنية، وسبقت يد المنون يد القراء، وبقي الكتاب حبيس مكتبته بين رفوفها، وأوراقا متناثرة على مكتبه طوته يد النسيان فيما بعد.

كان الرافعي يدرك تماما وعورة المسالك التي يريد السير وفقها لإخراج مشروعه الضخم, الذي سيكشف به عن علم قلما يسلم زمام انقياده لباحث, مع ما كان يتعرض له من وعكات صحية لطالما حالت بينه وبين ما يريد, فاجتمع عليه المرض من جهة, ووعورة البحث من جهة أخرى, يقول الرافعي في خطابه مع أحد طلابه: " ولكنه كتاب بحاله، ثم كتاب يوضع ليقاوم التاريخ المندفع بالناس الآن إلى المنحدر, فهو ليس من السهولة بما يخيل إليك، ولا بد من قراءة طويلة, وتفكير مستمر, وجهد, وتفرغ, وإن يرده الله ويمضه ويعين عليه "[10]. ثم يقول: " وحرت في إدراك الحكمة التي رمتني بهذا المرض لتصرفني عن ذلك العمل "[11].

الذي ترجح عند الدارسين أن الرافعي قطع شوطا مهما في وضع مادة الكتاب، ولكنهم يعتقدون أن العمل المبذول والجهد المستفرغ فيه ربما قد ضاع !! ولقد تأسفوا كثيرا على عدم إخراج الكتاب لقيمته وقيمة أفكار صاحبه فيه، يقول البدري: " ولكن الكتاب نفسه بقي محجوبا حتى يومنا هذا, وقد حاولت بجهد أن أقف على أثر له في بقايا مكتبته, وأوراقه في بيوت أبنائه وأبناء عمومته، وسألت تلامذته الأدنين, وفتشت مكتباتهم وأوراقهم فلم أفز بشيء، وقد كنت علمت من العريان قبل وفاته بأيام أنه كتب على الآلة الكاتبة, وأودع اثنين من أصفيائه العلماء لمراجعته، وكذلك نجله الدكتور محمود سامي الرافعي. وقد راجعت الأستاذ محمود محمد شاكر ـ وهو أحد الاثنين ـ ولكنه ذكر أنه كان قد اطلع عليه في حياة الرافعي في اضبارة خاصة، وهو كما جاءت صفته في كتاب العريان "[12].

لقد بحث البدري وتوصل إلى المصادر الموثوقة والمقربة من الرافعي، ومع ذلك لم يفز بشيء ذي بال، فالكتاب المخطوط ضاع, ولن يري النور، وتحسر عليه حسرة شديدة. وشاركه هذه الحسرة محمود أبو رية، فقد طال انتظاره للكتاب بعدما كانت وعود الرافعي له في كل مرة تجعل الأمل في نفسه قريب التحقق، فقد أخبره الرافعي بتفاصيل الكتاب كله، فمرة يخبره بقرب وقت الكتابة فيه والتفرغ له، وثانية بموضوع الكتاب وفصوله، وأخرى بقيمة

الكتاب ومكانته بين كتب الإعجاز. ومازال أبو رية يترقب خروج الكتاب في لهفة وشوق، يقول: " أين أسرار الإعجاز, ومتى يظهر ما تم فيه "[13].

وكل من وقفت على كلامهم بشأن الكتاب يتحسرون على ضياع هذا الكنز الذي لم يظفر به أحد، يقول البدري: " وكان العريان قد حدثني بخبر الكتاب، وكذلك حدثني محب الدين الخطيب, ومحمود محمد شاكر, ومحمد الرافعي، وكل كان يهيب بأدباء العربية أن يعينوا على إخراجه، ولكن أين هو الكتاب الآن ؟ لا أدري !"[14].

1-1-1- القيمة العلمية لكتاب (أسرار الإعجاز):

إنّ قيمة هذا الكتاب بقيت مطوية في صدر صاحبها, وعلى تلك الأوراق التي خلفت على سطح مكتبه، وما بقي بين أيدينا إلا النزر القليل الذي يدلنا على بعضها, يقول الرافعي مبينا قيمة الكتاب: " لو كان الأمر كتابة فصل, أو بعض فصول لهان، ولكنه كتاب بحاله، ثم كتاب يوضع ليقاوم التاريخ المندفع بالناس الآن إلى المنحدر، فهو ليس من السهولة بما يخيل إليك، ولا بد له من قراءة طويلة، وتفكير مستمر, وجهد, وتفرغ يخصه، ويعين عليه "[15].

يشعرك قول الرافعي هذا (كتاب يوضع ليقاوم التاريخ المندفع بالناس الآن إلى المنحدر) بمدى إدراكه للرسالة التي كان ينافح من أجلها, فهو يعتبر نفسه (رسولا لغويا), يسير في طريق كشف خبايا وأسرار البلاغة في القرآن، والإبانة عن مكنوناته المقدسة من خلال أساليب اللغة العربية، يبذل قصارى جهده, ويتفانى في دفع الأمة من المنحدرات التي تهوي بها, إلى القمم التي تشرئب لها أعناق ذوي الهمم العالية.

ولقد كانت أفكار كتابه هي أهم شيء عنده, بل هي أكبر من كل شيء, ويشعر القارئ بذلك حين يسمعه يقول: " ثم أتفرغ إن شاء الله لأعمالي, وأهمها عندي (أسرار الإعجاز)... لأن أسرار الإعجاز فوق كل أفكار هذا العصر... فترى ما لم يخطر بفكر إنسان "[16].

وتزداد قيمة ما كان يكتبه بحسب المقاصد التي كان يرجو تحقيقها, فالرجل يحمل هم إصلاح أمة, والنهوض بها, من خلال إرجاعها إلى كتاب ربها, والإيمان بما فيه, وهو لا يرى الراحة ولا يحسها, ولا يذوق طعمها, إلا إذا رأى تلك الأفكار والأحلام تتحقق وتتجسد في أمته، يقول:

" وهذا كله لا يجعلني أستريح إلا إذا أخرجت (أسرار الإعجاز)، لأن الناس متهيئون للإيمان، ولكن ينقصهم من يكشف لهم عن أماكنه"[17].

لم تكن كتابته مقصورة على هذا الموضوع وحده، بل هو بين الأدب والنقد يحيا ويعيش، لا يغفل عن كتابة الشعر ونظمه، ولا عن تذوق روائع البيان فيما ينسجه من بدائع النثر، فلا يزال فكره دائم الانشغال، لا يفتر ولا يتعب, ولا تكاد تمر به اللحظة إلا و(أسرار الإعجاز) يخالج صدره, ويحن إليه قلبه، ويهم أن يدع كل شيء ويتفرغ له وحده، يقول: " أما (أسرار الإعجاز) ففكري مشغول به دائما"[18]. وقال أيضا: " فكرت في أن أدع كل عمل وأشرع من الآن في (أسرار الإعجاز), وأترك المجموعة وغيرها"[19].

1-1-2- تاريخ كتابة (أسرار الإعجاز):

تعود بداية المرحلة الحقيقية في تدوين الكتاب إلى تاريخ الانتهاء من كتابه (أوراق الورد)، وكان يعتقد أن الدرس الحقيقي يبدأ بعد أن يتفرغ من كتابة (أوراق الورد), الكتاب الذي يعتبره رياضة فكرية[4] تعينه على تعميق أفكاره, وعملية تدريبية تقوي ذهنه, وتحمله على الغوص في أعماق المعاني، وفتح المغاليق التي حالت دون الوصول إلى أسرار آيات القرآن الكريم، وقد وجد ذلك يتحقق أمامه, قال مخبرا عن حاله: " الآن أرى نفسي تتطور بسرعة نحو هذا العمل, وأشعر أن وقته قد جاء، وربما كانت (أوراق الورد) كالرياضة الفكرية لتهيئة الفكر لـ(الأسرار)، فإن (أوراق الورد) عميقة جدا، أصبح الفكر بعدها مستعدا ـ والحمد لله ـ لما هو أعمق منها"[20].

انتهى الرافعي من طبع كتابه (أوراق الورد), وإخراجه للناس بعد الثامن من شهر يناير سنة 1931م، وقيل السابع عشر من نفس الشهر على حسب تواريخ رسائله التي كان يراسل بها صديقه أبا رية، وقد واعده بالابتداء في الكتاب من تاريخ إنهاء (أوراق الورد)، وضرب لذلك موعدا مباركا، حيث قال: " أما (أسرار الإعجاز), فإنا نستعين بالله في أمره، وسأبدأ فيه إن شاء الله من بعد رمضان المبارك، وهذا عمل هائل جدا"[21].

حسب كلامه يقدر أنه بدأ تحرير مقالات الأسرار ابتداء من عام: 1931م، ويؤيد هذا كثرة الرسائل التي كان يشير فيها إلى مواطن الإعجاز في عديد من الآيات التي كان يراسل بها صديقه.

وأما عن مدة تحرير الكتاب, فيجزم العريان بأنه استمر في كتابته إلى آخر لحظة كان فيها معه، وذلك قبل وفاته بسنة. فمدة ست سنوات لم تكن كافية لإنهاء هذا المشروع. وهذا ما توقعه الرافعي ذاته, فكان يعتقد طول مدته، ولكنه لم يتوقع طولها الذي بلغته، وهذا ما يفهم من قوله: " فإني أظن الأسرار لا تتم في أقل من سنتين"[22].

والظاهر أنه لم يضع قلمه, ولم يفرغ من الكتابة فيه حتى آخر عهد له بالدنيا، لأن الكتاب أخذ لبه وفكره, وهو رسالته التي نافح من أجل إحيائها في هذه الدنيا.

1-1-3- مادة الكتاب:

قطع الرافعي شوطا لا بأس به في وضع مادة كتابه، ولقد اطلع العريان على ما كتبه وخطه، فوجد مادته بضعا وثمانين آية, أتم استخراج ما فيها من أسرار, وكان المنهج الذي اعتمده في دراسته قد أشار إليه العريان ونقله عنه البدري في كتابه (الرافعي الكاتب), يقول البدري متحدثا عن ذلك[23]:

" ثم بدا له أن يتحرى أسرار الإعجاز في القرآن، فخط لذلك منهجا جديدا، ولكنه وجد أن ذلك يستتبع أن يكون له مصنف في التفسير على حدة... وكان العريان قد تحدث عنه بعد ما شهد فصولا تامة التأليف، وأخرى مجملة الفكرة مشارا إلى مصادرها، فهو:

أ ـ يتحدث في صدر الكتاب عن البلاغة العربية، فيردها إلى أصول غير التي اصطلح عليها علماؤها منذ كانت، ويضع لها قواعد جديدة، وأصولا أخرى.

ب ـ يتحدث في الفصل الثاني في بلاغة القرآن وأسرار إعجازه مسترشدا بما قدم من أصول.

ج ـ يتناول في الفصل الأخير من الكتاب آيات من القرآن على أسلوب من التفسير، يبين سر إعجازها في اللفظ والمعنى والفكرة العامة، وهو صلب الكتاب ومادته ".

كان الرافعي يسعى من وراء وضع كتاب (الأسرار) أن يوسع في بعض مجالات التنظير في وجوه البلاغة العربية عموما, والبلاغة في القرآن الكريم على وجه الخصوص, وهذا الذي جاء عن العريان تكلم عنه الرافعي أثناء مراسلاته لأبي رية، إذ يقول له: " بحث الأسلوب البياني هو أساس أسرار الإعجاز, وهو سيكون أول فصل فيه إن شاء الله"[24].

لقد كانت مادة الكتاب مجموع خواطر، يدونها أولا, ثم يعيد فيها النظر بعد ذلك بدقة وعمق، حتى يخلص في نهاية المطاف إلى المقال الذي يقع في نفسه موقع الرضا، فيخرجه في حلته التي يرتضيها له، يقول: " المفكرات التي كتبتها لأسرار الإعجاز هي تدريب الفكر فقط، ولكن الكتابة ستكون شيئا آخر"[25].

هذه هي حال الرافعي مع الكتابة، يجمع الأفكار، ثم يقلبها على وجوهها, ويولد معانيها بعضها من بعض، ويقعد أصول الفكرة ثم يفرع فروعها، لينتهي في الأخير إلى صياغتها في ألفاظ جزلة, قوية, تليق بعمق المعاني والدلالات التي يرمي إليها، فتخرج العبارة وكأن العرب خاطت له أثواب ألفاظها على حسب مقاس تلك المعاني التي جاء بها، وما الدلالات إلا أرواح تجسدها لغة الرافعي.

من خلال كلام العريان وتقسيمه لمادة الكتاب, يمكننا تصور حاله, فيظهر من خلال ما عرض أن الكتاب فصلان: أحدهما نظري, والآخر تطبيقي، وفي الفصل النظري يقوم بوضع الأسس التنظيرية التي تساعده في استخراج أسرار الآيات القرآنية التي تكون قيد الدراسة فيما بعد, كما أنه جعل الفصل الأول مقسما إلى قسمين, تحدث في الأول عن تأصيلات البلاغة العربية عموما, وفي القسم الآخر تكلم عن بلاغة القرآن وأسراره على وجه الخصوص، ثم سخر بعد ذلك جهده ليصبه على القسم العملي منهما, الذي يعتبر صلب الموضوع المقصود بالدرس.

بَيَّن الرافعي مادة الكتاب في عديد من المواضع في رسائله، فيومئ إليها أحيانا, ويشير إليها أحيانا, ويصرح بها أحيانا أخرى، وقد تعرض في كتابه (إعجاز القرآن) لبعض المباحث

التي تشير إلى لب ما قصده من بحث أسرار القرآن, حين يدقق في اللغة المعبرة عن الظواهر الكونية بدقة معجزة, وربط ذلك بما توصلت إليه أبحاث العلوم التجريبية الحديثة, يقول الرافعي: " وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع, وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية, وبسطوا كل ذلك بسطا ليس هو من غرضنا فنستقصي فيه, من ذلك طريقة التصوير الشمسي بإمساك الظل, وهي في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) [الفرقان: 45], فتأمل قوله: (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ), فإن هذه الحروف تكاد تنطق بأن هذا الأمر سيكون لا محالة, ومنها كشفهم أن مادة الكون هي الأثير, والله تعالى يقول في بدء الخلق: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) [فصلت: 11], ومنها ما حققوه من أن الأرض انفتقت من النظام الشمسي, والله تعالى يقول في السموات والأرض: (كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) [الأنبياء: 30], ومنها ثبوت أنه لولا الجبال لاضطربت دورة الأرض ... والكلام في مثل هذا يطول، ولا ريب عندنا أن تحقيقه سيكون موضوع كتاب الإعجاز, الذي يخرجه المستقبل برهانا للإنسانية على حقيقة دين الإنسانية "[26].

بث الرافعي عددا لا بأس به من مادة هذا الكتاب في بحوثه التي كان ينشرها، فأحيانا تكون مبثوثة في بعض كتبه، وأحيانا ينشرها في الجرائد والمجلات مثل (كوكب الشرق) و(المقتطف), و(الرسالة) وغيرها، ليجعلها فيما بعد مادة لكتبه التي يخرجها للناس، وأحيانا أخرى يجعلها مواضيع رسائل يراسل به تلاميذه وأصدقاءه.

فمثالٌ على ما بثه في بعض كتبه, تلك الآيات التي تحدث عن أسرارها في مقالاته من كتابه (وحي القلم), حين استخرج أسرار التعبير القرآني من قوله تعالى: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) [يوسف: 23 ـ 24] [27], أو في مقاله الآخر من نفس الكتاب, حين تحدث عن قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) [الحديد: 16] [28], قال الرافعي: " طريقتنا في اكتناه إعجاز القرآن، أن الكلمة الواحدة من كلماته لها جهات عدة؛ كما ترى فيما نشرحه من تفسير هذه الآية، وفيما جئنا به من تفسير آيات سبقت في المقالات الأخرى؛ فالبحث في فهم القرآن

يجب أن يكون في اللفظة، ووجه اختيارها، وسياق تركيبها، وما تدل عليه في كل ذلك، وما يدل كل ذلك بها "[29].

إن المتطلع والمتابع لكتب التفسير من جهة، وكلام الرافعي عن أسرار الإعجاز من جهة أخرى، يجد البون شاسعا, والفرق عميقا بين ما كان يبينه المفسرون من شرح معاني الآيات، وبين ما يبينه الرافعي من أسرارها، ذلك أن الدلالات والمعاني عند كثير من المفسرين تبدو جامدة، ولا تكاد تجاوز المعاني المعجمية، بينما تجدها عند الرافعي حية تتحرك, وكأنك حديث عهد بنزولها، تعيش أحداثها لحظة بلحظة, ويتحرك قلبك مع كل كلمة يدلك بها على أسرار معانيها, وكأن الله عز وجل فتح عليه ما استغلق على غيره.

وأما مثال ما نشره في الجرائد والمجلات, تفسيره لقوله تعالى: (لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ) [الغاشية: 7], يقول الرافعي في رسالة راسل بها بعض تلاميذه: "وسترى في مقالة (المقتطف) تأويل قوله تعالى في وصف طعام أهل الجحيم ... فترى ما لم يخطر بفكر إنسان إلى اليوم"[30]، ثم بين أسرار هذا الآية في دراسة ضمن كتابه (المساكين), وقد دل القراء على موطن بحثها فيه, فقال: "وسنختم (المساكين) بهذه المقالة, لأنها وحدها كتاب"[31].

وأما مثال الأخير: فتلك التي نشرت في كتابٍ ضم رسائله مع تلميذه محمود أبي رية، كبحثه في آية سورة النحل[32], في قوله تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ) [النحل: 73], وآية سورة الكهف[33], في قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا) [الكهف: 86], وغيرهما.

ويوجد قسم آخر من مادة الكتاب وعد به قراءه, ولكن لم يحالفني الحظ في العثور عليه مدونا في كتبه، ولا رسائله, فربما يكون مبثوثا في صفحات جرائد ذاك الزمان, وهذا لم يتحقق لي الحصول عليه, كتفسير قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ

) [يونس: 22]. فالرافعي أشار في رسائله إلى تفسيرها, فقال: " (إِذَا كُنْتُمْ), فخاطبهم بها, ثم عدل في باقي الآية إلى ضمير الغيبة، راجعت التفسير فلم أرى فيه ما يدل على السر البياني العجيب الذي خطر لي في هذا الأسلوب، ففكرت في أن أدع كل عمل, وأشرع من الآن في (أسرار الإعجاز)"[34]. ومثله في قوله تعالى: (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) [الصافات: 49]، قال:" وقد عجبت كيف لم أتذكر آية: (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) عند كتابة مقال امرئ القيس, ولكنها إن شاء الله ستكون الكتابة عنها لأسرار البلاغة "[35]، وهذا أيضا مما لم يتم العثور عليه.

بعد رحلة بحث وتفتيش في كل ما كتب الرافعي, استطعنا تحصيل بعض الآثار التي تربطنا بمادة الكتاب المفقود, وقد قاربت في عددها نصف ما تحدث عنه الباحثون, أي ما يقارب الأربعين آية, يمكن تقسيمها على أربعة محاور حسب ما تقتضيه مواضيعها:

المحور الأول: ما كان موضوعه متعلقا بالظواهر الكونية ودقة التعبير القرآني في وصفها, ومعالجة موضوعها, واستخراج أسرارها، ومثاله في قوله تعالى: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) [نوح: 16], يقول الرافعي: " ... المراد من الآية إثبات ما كشفته هذه العلوم من أن القمر جرم مظلم، وإنما يضيء بما ينعكس عليه من نور الشمس التي هي (سراجه), إذ النور لا يكون من ذات نفسه ابتداء، ولا بد له من مصدر يبعثه، فذكر السراج بعد النور دليل على أن هذا مصدر ذاك. فتأمل: أيمكن أن يكون هذا في طاقة رجل من العرب منذ ثلاثة عشر قرنا في تلك الجزيرة ؟ وإذا كان في طاقته, وكان ينظر إلى حقيقة المعنى العلمي ـ مع أن هذا المعنى لم يعرفه المفسرون في استبحار التمدن الإسلامي ـ فهل كانت تجيء العبارة إلا على الأصل الذي في نفسه, فتخرج صريحة في المعنى، كما هي طبيعة الكلام الإنساني ! إن بين الآية وبين كلام الناس، كالفرق بين نبي يوحى إليه وبين معلم جغرافيا ..."[36].

وكذلك في قوله تعالى: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) [يس: 38], يقول الرافعي: " ... تأمل هذا التنكير في قوله: (لِمُسْتَقَرٍّ), فهو يشعرك أن العالم الشمسي يجري في اللانهاية إلى نهاية محتومة، فما الشمس بمؤلمة إذا كان لها استقرار، فهي محدثة فانية، ثم قوله: (لَهَا), هو الذي يعين أنها تجري في اللانهاية، لأن المستقر غير مطلق، بل هو (

لَهَا)، ثم التعبير بالفعل[37] دون غيره، من نحو: تسير، أو تدور، إلخ، هو الذي ينطوي إلى الحقيقة الفلكية التي أثبتتها الأرقام، فكل كلمة من الآية إعجاز وحده ... "[38].

وفي قوله تعالى أيضا: (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) [المؤمنون: 13]، وهذه آية من آيات سورة المؤمنون، كتب في استخراج أسرارها بحثا موسعا، كان منه قوله: " ... في وصف القرار بأنه (مَكِينٍ)، إعجاز يفهمه الأطباء والذين درسوا التشريح، فقد ثبت أن الرحم مجهز في تكوينه وفي خصائصه بما يمكن أشد التمكين للجرثومة التي يكون منها اللقاح، ففيه مخابئ لها عجيبة خلقت لذلك خلقا، ثم مواد منفرزة لوقايتها، وحفظ الحياة عليها، والدفاع عنها أن تقتلها المواد الحامضة، ولذلك كله تجده في تشريح كلمة (مَكِينٍ) ... [39].

بلغ مجموع الآيات المدروسة في هذا المحور حوالي سبع آيات من نصوص القرآن الكريم.

المحور الثاني: ما كان موضوعه متعلقا بالإعجاز في أصوات الحروف والكلمات والجمل، والانسجام الإيقاعي فيها، ومثال ذلك قوله: " ... وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف، ومقاطع، مما يكون مستثقلا بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجا سريا، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة، وأعذبها منطقا، وأخفها تركيبا، إذ تراه قد هيأ لها أسبابا عجيبة من تكرار الحروف، وتنوع الحركات، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وُجد ذلك فيها، كقوله تعالى: (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) [النور: 55]، فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف، وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف، ومن نظم حركاتها، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات، إذ تنطق على أربعة مقاطع ... "[40].

وفي قوله أيضا: " ... تأمل قوله تعالى: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ) [الأعراف: 133]، فإنها خمسة أسماء، أخفها في اللفظ (الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالدَّمَ)، وأثقلها (الْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ)، فقدم (الطُّوفَانَ) لمكان المدين فيها، حتى يأنس اللسان بخفتها، ثم (الْجَرَادَ) وفيها كذلك مد، ثم جاء باللفظين الشديدين، مبتدئا

بأخفهما في اللسان, وأبعدهما في الصوت, لمكان تلك الغنة فيه، ثم جاء بلفظ (الدَّمَ) آخرا، وهي أخف الخمسة وأقلها حروفا، ليسرع اللسان فيها, ويستقيم لها ذوق النظم, ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب ... "[41].

وبلغ مجموع الآيات المدروسة في هذا المحور حوالي ثماني آيات من نصوص القرآن الكريم.

المحور الثالث: ما كان موضوعه متعلقا ببعض الصيغ الصرفية, والمباحث النحوية, ووجه استعمالها المعجز في الآيات، ومن ذلك ما أورده في قوله تعالى: (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى) [النجم: 22], يقول الرافعي: " ... وفي القرآن لفظة غريبة هي أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة (ضِيزَى) من قوله تعالى: (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى)، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أردت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم، مفصلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل, ثم هي في معرض الإنكار على العرب, إذ وردت في ذكر الأصنام, وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله ... فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى ..." [42].

وفي قوله تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ) [النجم: 22], يقول الرافعي: " ... أما تفسير الآية التي سألت عنها فقد راجعت التفاسير أول من أمس فلم أر فيها ما يقنع، والذي ظهر لي أن (شَيْئًا) في الآية بدلٌ من (رِزْقًا) وهذا الإعراب نبه إليه المفسرون, وجعلوه ضعيفا مع أن فيه كل القوة ... فـ (شَيْئًا) هذه معجزة الآية كلها، ويستحيل أن ينتبه إليها عقل بشري, ويجيء بها في هذا الموضع. وتكون النتيجة التي ترمي إليها الآية بهذا التعبير، أن المعبود الحق هو القوة الأزلية المالكة للإعجاز

المطلق، أي الواحد الأحد, وهو الله لا غيره, وما عدا ذلك فهو اختراع من أوهام الناس، موجود في الوهم, معدوم في الواقع والمعنى ... "[43].

وبلغ مجموع الآيات المدروسة في هذا المحور حوالي عشر آيات من نصوص القرآن الكريم.

المحور الرابع: ما كان موضوعه متعلقا بالمعاني العميقة التي كشف عن سرها النفسي المعجز، ومن ذلك ما أورده من أسرار الآيات التي استخرج دررها, وسطرها في عديد من الكتب والمقالات التي تم نشرها, مثل ما قال في بحثه عن سر التعبير في قوله تعالى: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ # وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) [يوسف: 23 ـ 24], يقول الرافعي: " ... لم تزد الآية على أن قالت: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي), و(الَّتِي) هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت؛ فلم يبق على الحب مُلك ولا منزلة؛ وزالت الملكة من الأنثى! وأعجب من هذا كلمة (وَرَاوَدَتْهُ) وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة, تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها, لون بعد لون؛ ذاهبة إلى فن، راجعة من فن؛ لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدَان الإبل في مشيتها؛ تذهب وتجيء في رفق. وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها؛ ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها ... ثم قال: (وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ) ولم يقل (أغلقت), وهذا يشعر أنها لما يئست، ورأت منه محاولة الانصراف، أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحد أقفالًا عدة، وتجري من باب إلى باب، وتضطرب يدها في الأغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط. (وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده, فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة، بل أنوثة حيوانية صرفة، متكشفة مصرحة ... هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض، وفيها طبيعة الأنوثة نازلة من أعلاها إلى أسفلها. فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يبق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثم عظمة الرجولة السامية المتمكنة في معانيها، فقال يوسف: (مَعَاذَ اللَّهِ) ثم قال: (إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ), ثم قال: (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

[يوسف: 23]. وهذه أسمى طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة، إذ كان أساس ضميرها في كل عصر هو اليقين بالله، ومعرفة الجميل، وكراهة الظلم ... "[44].

وما قاله أيضا في قوله تعالى: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) [إبراهيم: 12], يقول الرافعي: " ... هنا يتبين إعجاز الآية الكريمة؛ فقد ذكر فيها التوكل ثلاث مرات، وافتتحت به وختمت؛ والتوكل هو العزم الثابت كما أوضحنا ... فكأن الآية مصرحة أن نجاح المؤمن ونفاذه في الحياة لا يكونان أول الأشياء وآخرها إلا بثلاث: العزم الثابت، ثم العزم الثابت، ثم العزم الثابت, وأن الصبر ليس شيئًا يذكر، أو شيئًا يجدي، إن لم يكن صبرًا على أذى الحيوانية في أفظع وحشيتها ... "[45].

وبلغ مجموع الآيات المدروسة في هذا المحور حوالي سبع آيات من نصوص القرآن الكريم.

لم يقف الرافعي في استخراج أسرار الآيات عند دلالاتها المعجمية, ولم يتعامل مع ألفاظ النصوص كتعامل كثير ممن سبقه من المفسرين، بل كان يغوص في أعماق المعاني, ويدقق في سعة الدلالات, انطلاقا من بنية الكلمة, وما حوته من حروف, وانتظم فيها من أصوات, وما ميزها من حركات، ليخلص بعدها إلى بنية الجملة والتراكيب التي صيغت من أجل آداء معناها في السياق الذي وضعت فيه، ليظهر فيما بعد للقارئ سر إعجاز الآية في جمالها, وكمالها, وتمامها,كأحسن صورة عجزت ألسنة الثقلين عن الإتيان بمثلها، كل ذلك يكشف عنه بطريقة عجيبة, وكأنه فتح عليه فيها من دون الناس.

هذا ما تيسر جمعه حول كتاب (أسرار الإعجاز), قدمته بين يدي الباحثين ليكون كالمقدمة له، وكانت هذه رحلتي مع هذا الكتاب الذي بقيت النفس متعلقة به من أول وهلة قرأت فيها أقوال الرافعي في تفسير كلام رب العالمين، وحين علمت أن الرجل قد أفرد سفرا جليلا في هذا الاختصاص، انفرد به دون أهل عصره من الأدباء والعلماء، رغبت من يومها أن

أشارك في إظهاره للقراء بالقدر المستطاع, هذا الكنز المفقود الذي لم تعرف العربية ولا أهلها له مثيلا في هذه العصور المتأخرة.

الخاتمة:

تدور قضايا هذا البحث حول محور الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم, هذا المجال الواسع الذي عُنِيَ بكتابات العلماء فيه منذ بداية التأليف في العصور الإسلامية المتقدمة, انطلاقا من الجاحظ, ومرورا بالباقلاني والجرجاني, وانتهاء بالسيوطي, وغيرهم, إلى أن استقر الأمر في يد علماء العصر الحديث, حيث انبرى لهذا الميدان أديب العربية ـ مصطفى صادق الرافعي ـ فدون كتاب (تاريخ آداب العرب) في ثلاثة أجزاء, وأفرد الجزء الثاني منه للإعجاز القرآني والبلاغة النبوية, فكان هذا الكتاب سبقا تاريخيا إبان تلك الحقبة الزمنية, لا يعرف لمعاصريه مشاركته في موضوعه, وكان الكتاب بالنسبة له حافزا قويا دفعه ليخوض غمار البحث في استخراج أسرار الإعجاز في القرآن الكريم.

جمع الرافعي ـ قبل أن توافيه المنية ـ من النصوص القرآنية في دراسته قرابة الثمانين آية, ومع قلة عددها إلا أن معاصريه بهرتهم طريقة تعامله مع تلك النصوص, وأسلوبه في استخراج أسرارها, فشهدوا له بالتفرد في هذا الميدان, وانتظر الجميع إكمال المشروع وإخراجه للناس, ولكن سبقه الموت إلى ذلك, وبقي الكتاب أوراقا مبعثرة على مكتبه, ينتظر من يخرجه إلى نور المطابع.

وهذا البحث بصيص من نور, يحاول أن يدل على أثر ذاك السفر الجليل, ولو من بعيد, بالشيء القليل, لعله يكون بادرة أمل في إخراج بعض ما يمكن الحصول منه.

الهوامش:

1 ـ ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية, مصطفى صادق الرافعي, راجعه واعتنى به: درويش الجويدي, المكتبة العصرية, صيدا ـ بيوت, لبنان, 1422هـ / 221م, ص (127- 129).

2 ـ ينظر: نفس المصدر, ص (127- 129).

3 ـ ينظر: محمد رجب البيومي، مصطفى صادق الرافعي, دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1997 م. ص(93).

4 ـ ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية, ص(28).

5 ـ ينظر: الشحات محمد أبو ستيت، بحوث في البلاغة والنقد، مؤسسة البلاغ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1991م، ص(8).

6 ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية, ص(59).

7 ـ نفس المصدر.

8 ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.

9 ـ ينظر: المصدر نفسه.

10 ـ الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد، مصطفى نعمان البدري ،دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1991م, ص(294).

11 ـ نفس المرجع.

12 ـ نفس المرجع, ص(424).

13ـ رسائل الرافعي, محمود أبو رية، الدار العمرية, ص(232).

14 ـ الرافعي الكاتب, ص(294).

15 ـ رسائل الرافعي, أبو رية, ص(223).

16 ـ نفس المصدر, ص(155).

17 ـ رسائل الرافعي, أبو رية, ص(190).

18 ـ نفس المرجع, ص(193).

19 ـ نفس المرجع, ص(224).

20 ـ نفس المرجع, ص(190).

21 ـ رسائل الرافعي, أبو رية, ص(188).

22 ـ نفس المرجع، ص(223).

23 ـ ينظر: الرافعي الكاتب, البدري، ص(292).

24 ـ رسائل الرافعي, أبو رية, ص(217).

25 ـ المرجع نفسه, ص(226).

26 ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية, ص(107).

27 ـ وحي القلم, الرافعي, دار الكتاب العربي, بيروت, لبنان, 1420 هـ, 1999م, من مقال: " سمو الحب ", (103/1).

28 ـ وحي القلم, من مقال: " بنته الصغيرة ", (239/1 ـ 242).

29 ـ المصدر نفسه, (1/ 240).

30 ـ رسائل الرافعي, أبو رية، ص(155).

31 ـ نفس المرجع, ص(155).
32 ـ نفس المرجع, ص(244 ـ 245).
33 ـ نفس المرجع, ص(262).
34 ـ رسائل الرافعي, ص(224).
35 ـ نفس المرجع, ص(183).
36 ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية, ص(171).
37. يقصد الفعل: (تجري).
38 ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية, ص(110).
39 ـ نفس المصدر, ص(114).
40 ـ نفس المصدر, ص(171).
41 ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية, ص(192 ـ 193).
42 ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية, ص(189).
43 ـ رسائل الرافعي, أبو رية, ص(244 ـ 245).
44 ـ وحي القلم, ص(104/1 ـ 107).
45 ـ نفس المصدر, ص(125/1 ـ 127).